# تجلّيات الرّمز الصّوفي في شعر عثمان لوصيف (*)

# Spitural sufism symbols in Othman Loussif 's poetry

إملول كهينة / طالبة دكتوراه
مخبر التأويل وتحليل الخطاب، جامعة بجاية
البريد: imloulkahina3@gmail.com

**ملخّص:** تعالج هذه الورقة مسألة التّجربة الشّعرية المعاصرة من حيث هي مجال للخوض في عالم سحري يكتنفه زخم رؤيوي وتكثيف دلالي وقلق حضاري، وهو أمر واقعي راجع لتشظّي الرّاهن، حيث يتداخل هذا الأخير مع وعي الشّاعر المعرفي والفلسفي ليجعله يحاكي حالة روحية قوامها التساؤل والتّجاوز والمفارقة، وهو ما نلمسه في دواوين "عثمان لوصيف" الشّعرية، التي أعاد فيها بناء العلاقة بين الأنا والوجود والموت والحياة... فأثّرت هذه الرؤيا في اختيارات الشاعر على مستوى اللّغة والصّورة والرّمز.

**الكلمات المفتاحية:** الرّمز، الشّاعر، الصوفية، انفتاح الدلالة، عثمان لوصيف.

**Abstract :** This paper deals whith poetry as artistic world production full of that requiers the readers intervention to decode them and reveal the hidden meaning of them. Yet sometimes it appears so difficult to precise the poet intention, especially with the multitude of meaning conflict like a poet Othman Loucif who expresses a spitural sufism force.

Such a poem becoms a criative equation that reveals a relationship between symbol and interpretation, and with the interaction and the intention, a symbolic meaning becoms well understood, and well through the readers reaction.

**Keywords** : sufism, opening of meaning, poet, symbol, Othman Loussif, Symbols.

* تاريخ تسلم البحث: 2020/04/14، تاريخ قبول البحث: 2020/05/01

يعيش الشّاعر المعاصر حالة من التّجاوزية والخرق، تقوده نحو عوالم حالمة ، هادئة حينا، كما تعرّج به على مدارات مضطربة حينا آخر، يسعى في كلّ منها إلى البحث عن معادل رمزي يحتضن انفعالاته وشطحاته وحسّه الرّؤيوي، فيختار التّلميح الباطن دون التّصريح الظاهر ليستقرّ على التّغريب والمطلق حينئذ، "لا نتحدّث عن معرفة رمزية قابلة للنّقل وإنّما نتحدث عن رؤية رمزية موجودة أو مخلوقة قادرة على الإثارة."[1]، يضمر تصوّرا فكريا، "فالرّمز ذو طبيعة حدسية داخلية لا تقف عند حدود عالم المادة وإنما تتجاوزه إلى عالم الرؤى[2].

فلا شكّ إذن أن نراهن على شاعرية "عثمان لوصيف" الفريدة من خلال نصوصه الرّمزية التي أبى إلا أن يشتغل على دلالاتها العميقة، لكونها تصبّ في التّجلي والانتشاء والتّأمل، دافعة القارئ لمحاولة القبض على هذه الطاقات التّعبيرية المشحونة دلاليا، ليجد نفسه بين مدّ الجمال وجزر التّأويل في رحاب لغة طافحة بالجمال والرّقة، "فالحال أنّ الرمز ذاته ليس إلا حرفا، لأنه يظل سواء كان تحوّلا من داخل اللغة، أم أخذ بعدا أوسع منها في ارتباطه بأشياء الكون، لصيقا باللّغة"[3].

وهو الأمر الذي أوضحه "بول ريكور" على أساس أنّ "دراسة النصوص تصطدم بمعضلتين كبيرتين تجعلان الاقتراب من المعنى المزدوج أمرا في غاية الصعوبة، تتمثّل المعضلة الأولى في انتماء الرّمز إلى حقول معرفية متعددة ومتشعبة يصعب استقصاؤها... أما المعضلة الثانية فتتمثل في كون الرمز يشكل ملتقى تقاطع عالمين الأول لغوي والثاني غير لغوي"[4].

هذا كما يلاحظ قارئ دواوين الشاعر وعلى تنوّعها، حضور آثار الواقع من خلال تقصّي معان عدّة تتقدّمها دلالات الانفلات والاستشراف في معارج الشّعر، ممّا يضفي عليه هالة الصّوفي المريد، المشتهي، والمتعطّش لمعانقة النور والجمال، فأحسن اختيار الكلمة وأجاد سبك العبارة التي تناسبت مع رؤيته الصوفيّة المتجلية، بالتالي حقّق معادلة، "بدل أن يكون الشاعر جزءا من اللغة المألوفة، تصبح اللغة جزءا من الشاعر"[5].

فضلا عن الوقوف على صيغ أخرى تبدو للوهلة الأولى وكأنّها متناقضة متنافرة، ولكنّها سرعان ما تذوب وتلتحم بل وتزداد توهّجا بعد انكشاف حجب العزلة تلك فيتراءى أثناء الكتابة كعاشق للوجود، لا يتبنى أية أيديولوجية، ولا يفضل بنية ثقافية على أخرى، وكأنّ همّه الوحيد إعادة بناء أناه الصوفية السّوريالية في مقابل الوجود والموت والحياة، ويبقى التّعبير عن الحقيقة التي يريد محاكاتها حرّة طليقة، متناسلة مع معاني الجمال، والروح والطّبيعة... فجاءت مصادره شاملة متنوّعة عكست تجربته الحياتية والكونية.

نحا "عثمان لوصيف" منحى الرّفعة بنفسه البشريّة فوق رتابة الحياة اليومية ومحدوديتها، فحفلت قصائده برمزية كثيفة تصب في مجال الوحدة العضوية، حبلى بالإيحاء، يتفاعل في نسيجها جملة من

الأبعاد المحاطة بوشاح الصوفية، الملقّحة بالألم والوجد والسعادة، كرموز تعمل ضمن مدار اشتغالها غزل حلقات حكاية مسافر متيّم غدت حقيقته في أغلب الأحيان سرابا يحاول الإمساك بها متلبسا بالإيمان والتقوى، لعلّ أهم هذه الرّموز المكرّرة التي نقف عندها:

**1. رمز المرأة:**

إن المرأة بوصفها المحبوبة رمز الأنوثة الخالقة للرحم الكونية، وهي بوصفها كذلك علة الوجود، والعاشق لكي يحفر فيها يجب أن يغيب عن نفسه، عن صفاته، يجب أن يزيل صفاته لكي يثبت ذات حبيبته ويتوحد بهذه الذات(6). فمفهوم المرأة في نظر المتصوفة خرج عن المفهوم التقليدي المقولب والضيق الذي يبعث بالافتتان والرغبة الحسيّة، "يجد المحب الصوفي في الصورة الإنسانية الحسناء مجلى من مجالي الجمال الإلهيّ المطلق الذي تعشّقه وقدّسه وتمكّن من فؤاده، فيتعشّقها لا من حيث هي الأنثى المرأة الحسّية الفانية، ولا من حيث هي موضع الشهوة أو الهوى، بل من حيث هي رمز لذلك الجمال الشامل المتجلّي فيها في صورة كاملة ومبهرة"(7)، يقول في ديوان "ولعينيك هذا الفيض":

فلّت الأزاميلُ وجفّت الأقلام
وها أنا لا أزالُ غائبا
في ينابيعكِ الحرّارة
وغيطانكِ المعشوشبة
آه... يا امرأةَ العشق
والجنونِ الأعمى
قُولي: أحبّك... أحبّك
ومجّدي المعجزَة؟ (8)

يظهر جليا من خلال هذا المقطع أنّ الشاعر غارق في حب محبوبه أيّا كان، متعلّق بذاته، فأحسن انتقاء الألفاظ التي عانق من خلالها هذا الباطن المطلق، فغدت المرأة حينها جسرا للتّعبير عن لواعجه ووهجه.

يقول الشاعر كذلك:

آهٍ... يا امرأةَ المناسكِ
والنوافل
يا وثنًا روحانيًا
ويا مَعبودا
لا يغفرُ إلا لمن جنّ
بالإغماء في محرابه(9)

رسم الشاعر طريق رحلة صوفية منح فيها المرأة دور البطولة بعد أن غرق في مواجيدها وفيوضاتها، فشحنت الألفاظ بحمولة روحية عرفانية، عبّرت عن ملامح التواصل الروحي (المناسك، النّوافل، المعبود) عبر التحام صورة المرأة المحسوسة بالمتجلى المطلق – الله - وهذا هو التحول الحق في الصور عند التجلي، وهكذا ينشط الخيال الإبداعي متجها في فعاليته إلى الإدماج والتوحيد بين العلو المتجلي والصورة التي تجلى فيها، ويضع اللاّمرئي والمرئي، والروحي والمادي في تجانس وانسجام"[10].

يقول الشاعر في ديوان "جرس لسماوات تحت الماء":

أغتربُ فيك
أضربُ خيمةَ الروح على سهوبِ أنفاسِك
وأدعُو أبابيلَ الذكريات
أدعُو قطعانَ المواويل
أعلنُ عرسَ غواياتي[11]

السكر من مدام المحبوبة على وقع الذكريات مدعاة للاغتراب عن العالم الواقعي إلى عالم مجرّد، تشتعل في خضمّه الأنفاس ودقّات القلوب حدّ الجنون الإلهي، فيسقط معانيه على المرأة الحسناء، "باشتعال قبس العشق وتأجج ناره الإلهية، يزداد شوق المحب وحنينه إلى العرف الأقدس، والنفس الرحماني الذي تداعى إلى باطنه يتشمم النسيم الذي تطيّب بروائح المحبوبة، إذ إن هذا النفس هو الذي نفس عن الأسماء الإلهية ما كانت تجد من كرب حال بطونها، لأنها لا تفتأ تتعشق العالم لتظهر سلطانها في أعيانه"[12].

**2. رمز الحب:**

نجح الشاعر عثمان لوصيف في تلحين سنفونية الحب من خلال "استحضار ما هو غائب والقبض على زمن مراوغ يفلت من الإنسان، وعلى عوالم ورؤى تعذب خياله، فيحاول أن يقتنصها ويودعها أقفاص المادة المحسوسة"[13]، فاتّخذ الصوفية من المحبة الإلهية غذاء لروحهم، ومادة تسم تجربتهم الفكرية والروحيّة، ومسلكا للحلول مع الذات الإلهية العليا، فقوّضوا مركزية المحبة في المتجلي (الذات الإلهية)، وعبّروا عنها بكل ما هو جميل في عالم الموجودات، يقول محمد بن الفضل: "المحبة سقوط كل محبة من القلب إلا محبة الحبيب"[14].

يقول عثمان لوصيف في ديوان: "براءة":

تلكَ صوفيتي..
أن أطالعَ في نورِ وجهِك
سرَ الحياة
وسرَ الغوايات

أنْ أتوضأَ بالعشقِ في ظلِ عينيك
حيثُ ترفرفُ تسبيحةُ الكون
أن أتبددَ في دهشتي
عبر نزوةِ إشراقِة
وأعانقَ فيكِ النهائي واللانهائي
في لحظةٍ واحدة(15)

استطاع الشاعر من خلال حنكته الصوفية تطويع الرموز الغزلية من خلال توجيه تجربته الزئبقية والمشوشة بين الحلم والواقع، المرئي واللاّمرئي، الظّاهر والباطن، حيث "كل شيء يصبح مماثلا لله، لأنّ كل شيء يغدو منطويا على باطن وظاهر، ذلك ما ينطبق على اللغة الرمزية، فيها تنطوي أقصى درجات التشبيه على أقصى درجات التنزيه، حيث الكوني متجلّ في الخاص والمطلق في النسبي، والإلهي في الإنسي"(16).

يقول في ديوان "اللؤلؤة":

نصلي مخاضَ المعاني ونعبرُ دوامةَ الموت..
نولدُ بينَ جناحين
يخطفُنا البرقُ

نغوى
نواصلُ هذا الجنونَ المقدّس
نبدعُ لحنَ الخلودِ ونبقى نسبّحُ للعشق
نبقَى نصليّ... نصليّ(17)

تبرز لنا شخصيّة الشّاعر فاضحة لاعتمالات الروح في قيامها، في سفرها وصلاتها كآية من آيات العشق الرّبانية يندفع في ثناياها كالبرق لاختراق السماوات لعل وعسى تنفتح له الحجب، ليقرر في الأخير بعد هذا العذاب المهول الاستسلام للسماوات بالصلاة، حتى يرتاح ويتلبّس بلبوس السكينة وإخماد نيران الاحتراق التي تمزّقه، فارتاد عالم التّصوف باحثا عن الانعتاق، فوجد في هذا الكيان الأنثوي أيقونة للتعالي، فتغزّل بها وتودّد وتضرّع، فكانت ملهمة خياله ومسرح حياته ومماته.

**3. رمز الرحلة في الشعر الصوفي:**

تمتاز الصوفية بالنزوع نحو السفر، لأنّها تمثّل طريق العبد في عروجها للاتّصال بالذّات الإلهية، والرحلة إذا ما عدنا إلى التّراث الشّعري العربي، وبالتّحديد في العصر الجاهلي، بما أنّ الشّعر عدّ سجل العرب والمؤرّخ لحروبهم وبطولاتهم، وحتى رحلاتهم وما شابها من صعوبة ومشاق، وبالتالي عمد الشّعراء إلى أسطرة مقوّمات هذه الرحلة كانتقال وما يصاحبه من وسيلة ومؤونة، في ظلّ مناخ أقل

ما يمكن وصفه بالصعب، إن لم نقل بالمستحيل، وهنا نستشفّ التقاطع بين الرحلتين، على أساس أنّ الرحلة الصوفية لها من المشقة القدر الكبير، فالمريد ومن خلال سفر الروح الفردية إلى العالم العلوي، عبر سلسلة من الأحوال الصوفية المعبّرة عن الوحشة والاغتراب عن العالم الواقعي، وكمثال عن الرحلة في شعر "لوصيف" ما جاء في قوله:

أولُ الخلقِ عشق
وأولهُ شهقةٌ واشتعالُ
وتمرّ التواريخُ
ترتسمُ الأرض
يكتسحُ الماءُ كلَ الصحارى
وكلَّ الجبال
وأنا المتشتّتُ بين السلالات
لازلتُ أحيا
أموتُ
وأولد
حتى تبوّأتُ عرشَ الجلال
وتساميتُ نحو الكمال
آه. كم من أجيج قطعت
ومن لجج مرّة
وسرابخ مقفرة
كي أصيرَ إلى صورة
نتوهجُّ دندنةً وخيال
إنه الطينُ صيرورةُ النبض
أسطورة الأرض
يا آيةَ الطين[18]

يظهر من خلال المقطع، وكأنّ الشاعر يخوض مغامرة أسلوبها أو طريقها هو العشق، في رحلة معاناة اُختير الحب فيها كوسيط، من شأنه توصيله لمرفأ الانتشاء والخلود في العالم العلوي، وما يسترعي الانتباه، حضور الطبيعة كملمح صوفي جلي، "تكشفا للجوهر الإلهي، أو للنفس الحي المتصوّر سريانه فيها، وإشراقه في مظاهرها المختلفة، ومراياها المتباينة التي تشع بسر الجمال المنبعث فيها"[19].

يقول في موضع آخر:

طاعنٌ في السوادِ
في محيطاتِ عينيكِ،
في الظلمات،
وفي التيه،
أحفرُ في الموجِ أسطورةَ السندباد
حاضنًا هذه الفحمة اللؤلؤة[20]

أسقط الشاعر تجربته وكذا رحلته المحفوفة بالأهوال والمقرونة بالعقبات، بأسطورة السندباد، كمن يشدّ الرّحال طلبا للوصال، وهو في حالة التّوصيف هذه يرقى عن الواقع المادي، في مناجاة لبلوغ العالم الروحاني اللّامادي، عمد إلى اللّعب بدلالتين متوازيتين: رحلة القرب من المحبوب والتي تتّسم بطابع مادي واقعي، في مقابل الرحلة العلوية الروحانيّة اللّامادية. بشكل عام نلاحظ في شعر "لوصيف" تماثلا دلاليا رهيبا لبن الصفة والموصوف رغم انفصالهما في الأصل، كعلاقة المرأة بالخمرة، المرأة بالرحلة... وغيرها لا يسعنا المقام هنا لذكرها جميعا.

لقد أبان الشّاعر "عثمان لوصيف" عن كفاءة واقتدار في حمل المعنى والدلالة عليه، موظّفا الرّمز الصّوفي بشتى أنواعه وبمختلف مصادره لا يسعنا المقام هنا لذكرها جميعا، غير أنّها تتقاطع في كونها موغلة في الجمال، أخذ الشّاعر يبحث من ورائها معانقة كل جميل مطلق بلغة رومانسية، عبّر من خلالها عن وهجه العذري متكئا على المرأة والحب كتيمات جمالية منتجة، سوّغت له تمثّل الأبعاد الرّمزية الصّوفيّة لغويا وفنيّا، ما من شأنه التّعبير عن مرحلة الحداثة الشعريّة والحديث عن شهوة القصيدة والتّجريب الذي يعصف بقيود القصيدة ومعها قيود الذات الرامية للهرب والانفلات.

---

[1] نعيم اليافي: تطوّر الصورة الفنيّة في العصر الحديث، صفحات للدراسات والنّشر، سورية، 2008، ص: 230.

[2] المرجع نفسه، ص: 228.

[3] خالد بلقاسم: الصوفية والفراغ، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2012، ص: 76.

[4] عبد الله بريمي: السّيرورة التّأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات العربية المتحدة، 2010، ص: 217.

[5] أدونيس: الإبداع والإتباع عند العرب، دار الساقي، لبنان، د. ت، ص: 239.

[6] أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار الساقي، لبنان، د. ت، ص: 107.

[7] أسماء خوالدية: المحبة عند الصوفية بين تحفظ العذريين ورعونة الفتيان، كلمة للنشر والتوزيع، تونس، 2016، ص: 120.

[8] عثمان لوصيف: ولعينيك هذا الفيض، دار هومة، الجزائر، 1997، ص: 92.

[9] المصدر نفسه، ص: 36.

[10] عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984، ص: 117.

[11] عثمان لوصيف: جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بهذه الأنثى، منشورات البيت، الجزائر، 2009، ص: 156.

[12] عاطف جودة نصر: المرجع السابق، ص: 172.

[13] خالدة سعيد: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، 1979، ص: 53.

[14] أبو القاسم القشيري: الرسالة القشيرية، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، مصر، 1989، ص: 335.

[15] عثمان لوصيف: براءة، دار هومة، الجزائر،1997، ص: 44.

[16] خالد بلقاسم: المرجع السابق، نقلا عن:

Paul Nawyia: Exéges coranique et langage mystiq, Dar el machreq éditeur, Beyrouth, P 390.

[17] عثمان لوصيف: اللؤلؤة، 1997، ص: 22.

[18] عثمان لوصيف: قالت الوردة، دار هومه، الجزائر، 2000، ص: 36 - 38.

[19] وفيق سليطين: الشعر الصوفي، دار نون للدراسات والنشر، اللاذقية، 1997، ص: 199.

[20] عثمان لوصيف، اللؤلؤة، ص: 5.

## قائمة المصادر والمراجع


1) أبو القاسم القشيري،: الرسالة القشيرية، دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر، مصر، 1989.
2) أدونيس: الإبداع والإتباع عند العرب، دار الساقي، لبنان، د. ت.
3) أدونيس: الصوفية والسوريالية، دار الساقي، لبنان، د. ت.
4) أسماء خوالدية،: المحبة عند الصوفية بين تحفظ العذريين ورعونة الفتيان، كلمة للنشر والتوزيع، تونس، 2016.
5) خالد بلقاسم: الصوفية والفراغ، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2012.
6) خالدة سعيد: حركية الإبداع، دار العودة، بيروت، 1979.
7) عاطف جودة نصر: الخيال مفهوماته ووظائفه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1984.
8) عبد الله بريمي: السّيرورة التّأويلية في هرمينوسيا هانس جورج غادامير وبول ريكور، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات العربية المتحدة، 2010.
9) عثمان لوصيف: اللؤلؤة، 1997.
10) عثمان لوصيف: براءة، دار هومة، الجزائر، 1997.
11) عثمان لوصيف: جرس لسماوات تحت الماء متبوعة بهذه الأنثى، منشورات البيت، الجزائر، 2009.
12) عثمان لوصيف: قالت الوردة، دار هومه، الجزائر، 2000.
13) عثمان لوصيف: ولعينيك هذا الفيض، دار هومة، الجزائر، 1997.
14) نعيم اليافي: تطوّر الصورة الفنيّة في العصر الحديث، صفحات للدراسات والنّشر، سورية، 2008.
15) وفيق سليطين: الشعر الصوفي، دار نون للدراسات والنشر، اللاذقية، 1997.